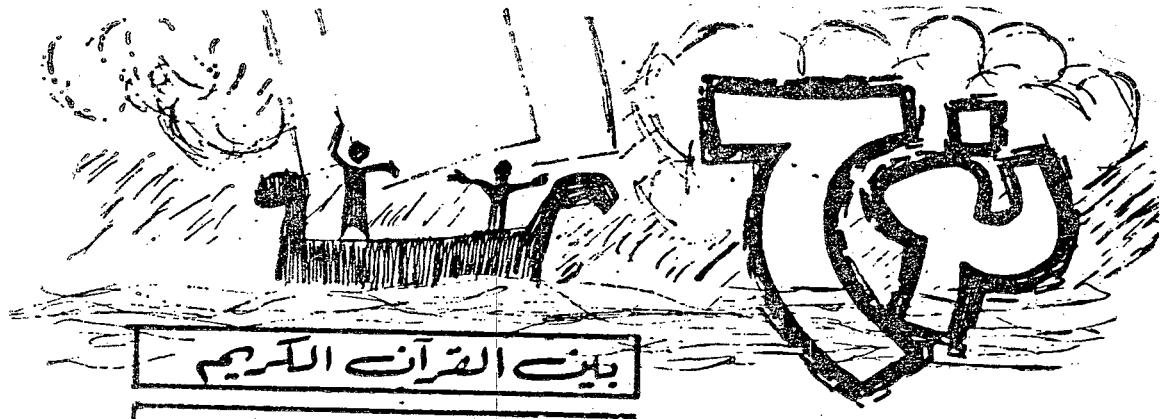

بين القرآن الكريم وبين كتب العهد القديم

الأستاذ بهاء الدين القباني

الفصل الاخير

رأينا فى العدد الماضى كيف أن نوحا ـ فى القرآن ـ أخذ فى تنفيذ أمر ربه الأول الخاص بصناعة الفلك .. ولم يضعف أمام المشركين .. بل كان يرد عليهم سخريتهم .. ويهددهم بالخزى الذى سوف يلحق بهم فى يوم قريب .. وأثناء صناعته تلك لم نسمع نوحا يخاطب الله فى شأن المشركين الظالمين .. وخرجنا بعدم تنكب نوح تنفيذ أوامر ربه .. فما زال السؤال الذى طرحناه فى هذا الصدد ماثلا أمام عيوننا .. ومازلنا نحن نجيب عليه من خلال عرضنا للاحداث العظمى .. وتحليلها الذى ورد به القرآن .. مع تبيان الملابسات الخطيرة التى قدر الله أن تجرى على يدى نوح عليه السلام ! .

وبالطبع عرفنا كيف أن سفر التكوين قد أهمل التكلم عن تلك الظروف التى صاحبت نوحا أثناء صناعته لسفينته .. ولم يتحدث اطلاقا عن تلك العلامة الرائعة الفاصلة وهى فوران التنور .. ولم يذهب الى تحليل أية وقائع .. الامر الذى أسلم قصة نوح جميعا الى غموض وتشويش شديدين ! ونحسب أن مترجم سفر التكوين قد ترجم هذه الفصول من قصة نوح وهو مريض بداء الحمى .. فانعكس مرضه على كتابته فلم يدقق فيها أى تدقيق .. ظنا منه أن الملايين من متبعى سفر التكوين هم الاخرون مصابون بداء الحمى مثله .. فلن يكون هناك معارض أو ناقد لكتابته !! ونحسب أن تلك الملايين جميعا فى أتم صحة .. الامر الذى نود أن يقيموا الحجج على صحته !

وحتى نستطيع أن نلم بالذى حدث بعد ذلك تماما فى كل من الكتابين المنيين اذ أن الذى حدث كان دقيقا وعنيفا .. وشيقا الى درجة كبيرة .. فنرى من الاوفق أن نقسمه الى ستة أقسام .. فلا نترك ثغرة واحدة فقط تستطيع أية نقطة ماء من الطوفان نفسه النفاذ اليها .. تلك هى :

١ ـ فوران التنور

٢ ـ الركوب فى السفينة

٣ ـ الطوفان

٤ ـ الهدوء بعد العاصفة

٥ ـ استرحام نوح ربه

٦ ـ الحياة على الارض من جديد

القسم الأول : فوران التنور :

من المسلم به أن كل حدث عظيم يسبقه تمهيد يثير الطريق اليه .. والأمثلة كثيرة .. فالبركان حين ثورته فانه قد يبدأ ببعض هزات أرضية .. تنطلق على اثرها الحمم من فوهته انطلاقا رهيبا .. وفوران التنور على يدى نوح تمهيد لانطلاق جنود الله تؤدب الذين يتطاولون على خالقهم .. وعلامة لنوح يستبين بها ساعة الصفر .. هذه العلامة ـ كما قلنا ـ لانجد لها ذكرا فى جميع أرجاء سفر التكوين .. مع أنها حدث هائل شيق يبعث الامل فى نفوس المؤمنين المساعدين لنوح فى صناعته .. ويبعث فيهم النشاط بتوقع حدوثه .. والارتياح برضى الله عنهم وانتصاره لهم ودحر الكافرين الجاحدين !

أما القرآن .. فقد أخبر باعطاء نوح هذه العلامة التمهيدية .. فقد أوحى الله اليه بأن يبدأ فى صناعة الفلك وأن يستمر فى صناعته حتى يجىء أمر الله بعد ذلك .. وعلامة هذا الامر التى يمكن اعتبارها « كلمة السر » هى فوران التنور الذى ينضج لنوح فيه خبزه .. يقول القرآن : « فأوحينا اليه أن اصنع الفلك باعيننا ووحينا ! فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها » . (المؤمنون ٢٧) .

وفى الواقع ان فوران التنور فى حد ذاته حدث شيق .. وكأننا بنوح يداوم على القاء نظراته على تنوره القريب من ساحة العمل . وقد يكون المؤمنون قد لاحظوا نظرات نوح المتكررة الى التنور .. فسألوه عن السبب فأخبرهم بأن فوران الماء عن التنور علامة على بدء الحدث الضخم .. أو يكون نوح نفسه قد

أخبرهم بها عقب أن أوحى الله اليه بالصناعة .. ومهما يكن من أمر فان تلك النظرات الى التنور كانت تصدر عن جميع العاملين فى السفينة .. وكأنها قوة دافعة تلهب حماسهم الى المواصلة فى العمل .. وتشعرهم بقرب خلاصهم من تعنت الكافرين .. فاعتبر جميع المؤمنين أنهم بسبيل قطف ثمار ناضجة لذيذة ..

فأخذوا يعنون بأشجارها وأعوادها عناية فائقة ... ولقد كانت تلك النظرات بالطبع قليلة ابان جمع الأخشاب والآلات البدائية أثناء المراحل الأولى من العمل .. وكلما اقترب نوح من الانتهاء من سفينته اذ بنظراته الى التنور تزداد .. ومن الجائز أن نرى نوحا يثبت بصره فى هيكل التنور ساعات طوالا فانه يعلم أن الاشارة من هنا .. فتزداد ضربات قلبه .. ويزوغ بصره متقلبا بين التنور وبين ما هو فيه من تركيب ألواح ومن دق مسامير .. شأن كل العاملين معه .. وكل منهم يمنى نفسه بمشاهدة تدفق الماء من التنور أولا .. خصوصا وأنهم بسبيل رتوش يسيرة فى السفينة .. فيطلق حنجرته بصيحة قوية يعلن بها وفاء الله وعده الحق .

وفجأة .. وبينا نوح يعمل فى حيوية مشوبة باهتزاز خفيف نتيجة توقعه العميق لظهور العلامة .. اذ بأذنيه تتلقفان صوتا غريبا صادرا عن التنور .. فادار وجهه اليه فى سرعة فائقة .. فرأى التنور الملىء بالاخشاب المشتعلة .. يبدأ الماء فى التدفق منه فى شكل ينبوع صغير .. تنعقد سحب البخار فوقه نتيجة غليان ذلك الماء .. واذ بنوح تنطلق منه صيحة تكبر الله وتحمده .. وتنزل دموعه على خديه فتبلل شفتيه المضطربتين .. وينبعه فى ذلك من حوله من المؤمنين .

ومما لاشك فيه أن هذه اللحظة بالذات لحظةفوران التنور .. لابد وأن لها وقعا شديدا فى نفس نوح .. فهو يعلم ما تعنيه هذه العلامة تماما .. وكأننا بنوح يعلو ويهبط صدره فى سرعة كبيرة وكأنه قطع عدة أميال جريا على قدميه .. وبعينى نوح الزائغتين اللتين نحسب أن وقع المفاجأة قد جعلتهما مبحلقتين لايريان شيئا .. لا التنور ..ولا الماء .. ولا المؤمنين من حوله .. وحتى أذنيه كأنه لايسمع بهما الصيحات المدوية التى تنطلق من حناجرهم .. فلقد حملته العلامة الرهيبة الى عالم مملوء بالذهول .. وبالطبع فقد ينسى نوح نفسه .. وينسى أمر ربه كذلك عند مجيء العلامة .. هذا الامر الذى أوحاه الله اليه من قبل أن يحمل فى فلكه من كل المخلوقات زوجين اثنين وأهله ومن آمن .. عند رؤيته للعلامة .. فهذه هى العلامة تظهر .. ولكن نوحا واقف فى دوامة عنيفة لا يدرى ماذا يفعل .. وكأنه عاجز عن مداركة الموقف الرهيب الذى أفلت من يديه زمامه ؟

هذه اللحظة .. قدر الله العليم لها شدة وقعهاعلى نوح .. وكيف أنها عصيبة الى درجة عظمى قد تجعل نوحا يخرج عن طوره . أو تؤثر فى عقله تأثيرا ما .. فينسى ساعتها ما يجب عليه عمله .. وقد يختلطعليه الأمر .. فاذ بالله الرحيم يقف الى جانب نوح يساعده ويطمئنه .. فيرسل اليه جبريل عليه السلام يحمل الى نوح كلام الله وأمره الذى لابد وأن ينشرح لهصدر نوح ويتثبت به .. يذكره بما يجب عليه عمله فى مثل هذه الساعة أن يا نوح هيا الى تنفيذ أمر الله فى أخذ زوجين اثنين من المخلوقات وأهلك أيضا .. ومن آمن .. فقد قال الله له : « احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن » .. (هود ٤٠) ..

وبعده .. أفاق نوح لنفسه .. واطمأن كثيرا .. وبدأ فى التنفيذ على الفور .

ونأتى الى القسم الثانى وهو : الركوب فى السفينة.

وطفق نوح يجمع من كل زوجين اثنين .. ويشرف على استقرارهم فى الفلك .. ولقد جاء سفر التكوين بتفصيل عن ماهية تلك المخلوقات التى حملها نوح فى فلكه .. وبالطبع ان فن السرد يستتبع عدم الاطناب.. والتكرار .. فالكاتب اذ يجىء بالكلمة أو بالعبارة مرتين فى نفس المقام - بلا داع - شىء يقبل على مضض .. أما اذا جاء بها ثلاث مرات فهذا هو الملل بعينه .. وما بال القراء الأفاضل اذا قلنا أن سفر التكوين قد جاء بذكر أغلب أنواع المخلوقات .. وأخذ يكرر فيها أربع مرات متتالية تنتظم أصحاحين بأكملهما هما السادس والسابع !؟ . ولولا أننا نخشى على القارىء من الملل وعدم متابعته لبحثنا هذا لعرضنا عليه الاصحاحين جميعا ليرى كيف أنهما مقسمان الى أربعة أقسام .. كل قسم يكاد ينطبق على الاخر تمام الانطباق .. بطريقة المثلثات المتطابقة .. ولكننا أمانة للبحث سنمر على قسمين منها مرورا سريعا .. ونجد أنه لادا عى لذكر الآخرين وان كنا سنخبر بأمكنتهما .. وذلك لعدم احتياجنا اليهما . فقد قال الله لنوح - فى سفر التكوين - أن يدخل الى الفلك وأهله وكذلك الحيوانات « فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك .. من كل حى من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك تكون ذكرا وأنثى من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الارض كأجناسها اثنين من كل تدخل اليك لاستبقائها » . (ص ٦ : ١٨ - ٢٠) .. ومما يجدر ذكره أن هذا الامر قبل أن يصنع نوح فلكه .. ويمكننا قبوله مع ما فى التعبير من الركاكة .. ولكن ما الداعى الى هذا الذكر مرة أخرى ! وقبل أن يصنع نوح فلكه أيضا .. فاننا نرى فى الاصحاح السابع نفس العبارات تقريبا من فقرة ١ الى فقرة ٣ ؟ والتكرار عند الطوفان أيضا فاننا نجد الكلمات عينها فى الاصحاح السابع من فقرة ٧ الى ٩ ؟ ونقرأ أيضا فى نفس الاصحاح : « فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوحوامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم الى الفلك هم وكلالوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها .. ودخلت الى نوح الى الفلك اثنين اثنين من كل ذى جسد كما أمره الله . » (ص ٧ : ١٣ - ١٦) .

وبالطبع هذا تفصيل جميل !. ولكن ما الداعى الى تكراره أربع مرات على التوالى بدون فاصل يستوجب التكرار فيذهب بحلاوة التفصيل ؟؟ . ثم ان سفر التكوين لم يذكر أن هناك مؤمنين من غير أهل نوح كان لهم نصيب من الركوب فى السفينة !

ولنا أسئلة بالنسبة الى سفر التكوين بالطبع .. ألم يتكلم نوح أثناء عملية الاشراف على الراكبين ؟ هل أخذ يرص المخلوقات كما يرص البناء الطوب فى صمت ؟؟ ألم يشرح نوح صدر المؤمنين بكلمة تطمئنهم وتبعث فيهم الرضا عن عمل الله العظيم ؟ ألا يمكن اعتبار المؤمنين زائرين لنوح فى سفينته فهو يستضيفهم باسم الله القدير ؟؟ ويوجه اليهم عبارات الترحيب بلسان تقى مملوء بالايمان والورع ؟؟ ألا يقدم اليهم كؤوسا من مغفرة الله لهم ؟؟

لا نخرج من هذه الأسئلة - كقراء لسفر التكوين - الا بأننا بصدد فيلم سينمائى صامت !! أناس يتحركون

ولا ينطقون .. هذا الفيلم المشوش الصامت هو قصة نوح فى سفر التكوين ؟!

أما القرآن .. فقد ترك العنان لذهن نوح أن يتجول فى جميع المخلوقات فأوجز اليه الامر ايجازا عجيبا .. ولم يعدد القرآن الاصناف التى يجب على نوح أن تحملها سفينته .. لم يقل ان نوحا يحمل من الطيور كذا .. ومن البهائم كذا ! .. أو من أهله فلانا وفلانا .. بل أوجز القرآن كل هذا وأخبرنا أنه قال لنوح : « احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن » ! (هود ٤٠) .. فهذه بالطبع كلمات موحية تنبعث منها أضواء قوية تكشف الصور أمام القارىء الى مدى بعيد .. والى القدر الذى يستطيع ذهن أى قارىء الوصول اليه .. فكأن تلك الكلمات ليست فى ذاتها صورا يمكن رؤيتها .. ويستطاع عدها واحدة فواحدة ! وانما هى شعاع يكشف أمامنا تلك الصور .. بحيث اذا افتقدنا هذا الشعاع الذى هو عبارة عن كلمات القرآن الموحية .. فبالطبع لن نرى صورا على الاطلاق ولا نحس بوجودها .

ولقد ورد فى « روح المعانى » أن العلماء اختلفوا فى كيفية جمع الحيوانات على تفرقها فى أكناف الارض. فقيل أنها أحست بالعذاب فاجتمعت .. وعن الزهرى أن الله تعالى بعث ريحا فحمل اليه من كل زوجين اثنين من الطيور والسباع والوحوش والبهائم » .

ولكننا نقول بأنه كانت هناك فترة تمهيدية ما بين ظهور علامة فوران التنور وبين انفتاح أبواب السماء بالمطر الغزير .. ونحسب أنها فترة طويلة نسبيا بالقياس الى الاعمار الطويلة التى كان عليها البشر فى ذلك الوقت السحيق .. تلك الفترة ارتفع الماء اثناءها عن الأرض بالقدر الذى يجعل سفينة نوح تجرى فوقه بسهولة .. وفى تلك الأثناء بالطبع لجأت الوحوش والهوام والسباع الى الجبال العالية لتبتعد ـ فى ظنها ـ عن خطر الغرق . وعندما تمر السفينة بهم أثناء جريانها الى جوار الجبال .. يأخذ نوح من الوحوش الموجودة والحيوانات الأخرى ما أمره الله به ويترك الباقى .. وتسير السفينة الى جبل آخر قد تكون عليه أصناف من المخلوقات الأخرى لم تحملها سفينته بعد .. فيأخذها معه .. أى كان نوحا عليه السلام قد استعمل سفينته فى جمع تلك المخلوقات التى أخذت تأوى الى المرتفعات خوفا من الغرق فكأن السفينة قامت معه بنصيب كبير فى تنفيذ أمر ربه وسهلت له سبيله .. والذى يدعونا الى ابداء هذا الرأى هو أن نوحا نادى ابنه ـ والطوفان على أشده ـ أن يركب فى الفلك ولكن الابن رفض .. ولو رضى الابن بالركوب لكانت السفينة رست عنده لتحمله .. أى أن عملية الركوب كانت مستمرة حتى أثناء بلوغ الطوفان مبلغا عنيفا !

وقد أخرج ابن عساكر عن عطاء أن ابليس جاء ليركب السفينة فدفعه نوح عليه السلام فقال : يانوح انى منظور ولا سبيل لك على .. فعرف أنه صادق فأمره أن يجلس على خيزران السفينة .. وان كان ابن عباس يروى رواية مخالفة لهذا بأن نوحا قال للحمار : ادخل شيطان .. فدخل الشيطان مع الحمار ! ولما رآه نوح قال له : ويلك من أذن لك ؟ قال : أنت ! .. قال : متى ؟! قال : اذ قلت للحمار ادخل شيطان فدخلت باذن منك !!

وأما من ناحية أهل نوح والمؤمنين معه .. فقد ورد فى الألوسى أنهم كانوا تسعة وسبعين رجلا .. زوجته وبنيه الثلاثة ونساءهم واثنين وسبعين رجلا وامرأة من غيرهم من بنى شيث .. ولقد كان من بين زوجات نوح زوجة كافرة هى واعلة ـ كما جاء فى الالوسى ـ وابنها كافر ايضا هو كنعان وهو الذى نفاه أبوه نوح فلم يستجب له !!

واننا لنسمع نوحا النبى العظيم يستضيف بقسم الله هؤلاء المؤمنين معه .. فيأخذ ببشاشة واخلاص فى ادخال الطمأنينة الى قلوبهم .. ويحييهم تحية فيها سلام وغفران . واذ يدخل المؤمنون فى محراب السفينة المقدس يقول لهم نوح : « اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم » (هود ٤١) .. وعلمه الله كلمات خالدات يقولهن بعد استوائه ومن معه على الفلك ! . يقول الله مخاطبا نوحا : فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ! » (المؤمنون ٢٨) ..

اذن .. ففى هذا القسم الثانى لم يتنكب نوح أمر ربه .. بل نفذه بحذافيره .. فما زال السؤال الذى طرحناه نجيب عليه من خلال الاحداث !

ونأتى الى القسم الثالث .. وهو : الطوفان

بدأت الثغرة الاولى من التنور تزداد فى اتساعها شيئا فشيئا !! وأخذت الأرض من حول القوم تتفجر منها ينابيع الماء .. والسماء ترسل أمطارها .. وان هى الا أيام حتى صارت الامواج كالجبال تلطم القوم الكافرين ! والبيوت ! وكل ما يصادفها فى غير هوادة ولا شفقة ! .. اذن .. فلقد اشتد الكرب العظيم !

وبالطبع .. كنا نمنى انفسنا بوصف رائع دقيق فى سفر التكوين .. خصوصا وان سفر التكوين قد مر بنا فعرفنا كيف وصف الركوب فى السفينة وكرره أربع مرات فى تفصيل لا مبرر له .. وكنا نعتقد أننا سنحظى بصور وعبارات موحيه تعطى الموقف العنيف حظه من الاتقان .. ومن الفن .. سيما وأن سفر التكوين كتاب منزل من الله تعالى ـ أو يفترض فيه ذلك ـ فلابد وأننا سنقرأ الاعجاز فى تلك التصاوير .. ونستشعر الدقة فيما توالى من الاحداث .. خاصة وان الموقف الذى جرى على يدى نوح عليه السلام لم يسبق حدوثه فى التاريخ ولن يحدث حتى قيام الساعة .. ولكننا لا نجد عنه أى تصاوير .. أو ألفاظ تحملنا الى الماضى السحيق .. ولا صورا محسوسة تقرب الأمر الى أذهاننا نحن أناس القرن العشرين ! الامر الذى أكد لنا أن المترجم فى هذا الجزء قد ازدادت عليه موجة الحمى ووطأتها .. فكتب أفكارا من رأسه المحموم تخبط فيها تخبطا بعيدا .. دون مراقبة من ضميره ! ودون أمانة ! فلقد جاء فى سفر التكوين عن ذلك الطوفان الفظيع : « أن مياه الطوفان صارت على الارض .. فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء .. وكان المطر على الارض أربعين يوما وأربعين ليلة » (ص ٧ : ١٠ ـ ١١) .. هذا اذن هو وصف سفر التكوين للطوفان .. تفجرت الينابيع والأمطار استمرت أربعين يوما .. هكذا بطريقة الرسائل الحكومية المجردة التى لاتحمل أى نوع من أنواع فن الكتابة المؤثر فى النفس ! ومع هذا فاننا نقبل هذا الكلام على علاته كترجمة لشىء يسير جدا عن الطوفان .. ولكن عندما نقرأ ماجاء عن الطوفان أيضا فى سفر التكوين وفى نفس الاصحاح تجعلنا نذهب الى القول بأن الصبى فى الصف الخامس الابتدائى يجد أنه من العيب « جدا » فى الكتابة تكرار الكلمات والجمل .. فنقرأ فى سفر التكوين : « وكان الطوفان أربعين يوما على الارض .. وتكاثرت المياه .. ورفعت الفلك

ترتفع عن الأرض .. وتعظم المياه كثيرا جدا على الأرض .. فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء .. خمسة عشر ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال .. فمات كل ذى جسد كان يدب على الارض » (ص ٧ : ١٧ ـ ٢١) .

هذه خمسة سطور فقط فى سفر التكوين !! .. فيها ما يأتى :

كلمة « الأرض » تكررت ٥ مرات
كلمة « على » تكررت ٥ مرات .
كلمة « المياه » تكررت ٥ مرات .
كلمة « فتغطت » الجبال تكررت مرتين .
كلمة « الفلك » تكررت مرتين .
كلمة « جدا » تكررت مرتين .
كلمة « تعاظمت المياه » تكررت ٢ مرات
كلمة « تكاثرت » تكررت ٣ مرات .
كلمة « فارتفع » تكررت ٢ مرات .
كلمة « كان » تكررت ٣ مرات

فاى كلمات هذه الفقرة لم يكرر يا ترى ؟ يبدو أننى لم أدقق النظر فيها جيدا !! ؟

ولماذا الحشو هنا : « ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض ؟ » فبالطبع سيرتفع الفلك عن الارض .. لانه لن يطير فى السماء !

والحشو أيضا : « فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت السماء !! » فهل ياترى هناك جبال لا تظللها السماء ؟ .. فهل هذا منطق قول يوحى به الله العظيم ؟ ألا يوجد فى الفقرة وصف للعذاب الشديد ؟ ألا يوجد هناك تشبيه أو استعارة أو كناية ؟ او اى فن من فنون السرد ؟ هل فى هذه الفقرة من المعنى يمكن اضافته الى الأحداث فتخرج بلوحة رائعة ؟ بالطبع مستحيل .. فسبحانك ربى !! هذا بهتان عظيم !

ولنقرأ اذن ما جاء عن الطوفان فى القرآن العظيم .

وأول ما يقابلنا فى هذا الصدد .. هو هذا التصوير المهيب الذى صوره لنا القرآن لتبيان الطوفان .. ولحمل القارىء ليعيش ـ على البعد بالطبع ـ فى ذلك الطوفان من خلال صور تبلغ القمة فى رسمها وروعة اطارها .. وبراعة الوانها .. ونستطيع أن نقسم هذه الصور الى نقطتين :

الأولى : صور حسية ..
الثانية : صور معنوية ..

فمن ناحية الصور الحسية فقد حملنا القرآن الى عهد نوح .. وكأننا بازاء نافذة مفتوحة من نوافذ قطار يذهب الأرض ضحى .. فكل خطوة يخطوها القطار ان هى الا لوحة واسعة مليئة بالصنوف المتعددة من المناظر والأشكال والأحجام .. عليها من الظلال القريبة والبعيدة ما يجعل أذهاننا هى الأخرى تسبح فى أجواء أوسع وأعم فتضفى عليها خيالا أرقى .. وحقيقة أعظم .. فلقد قال الله عن الطوفان فى سورة القمر : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا .. فالتقى الماء على أمر قد قدر » (القمر ١١ـ١٢) .. وبالطبع هذا تعبير يفوق الروعة نفسها .. فلقد تجمعت السحب الثقيلة التى تنذر بامتلاء بطنها بالماء الكثير الذى لا يعلم حدود كثرته الا الله تعالى .. وأخذ كل جزء من تلك السحب فى وقت واحد يرسل ماءه فى خيوط متصلة غير منقطعة .. وان هذه السحب فى تجمعها فى خط أفقى لم تترك جزءا من السماء نفسها الا حجبته .. وبالطبع فقد حجبت الشمس أيضا .. فاذا أضفنا لون السحاب القاتم الى عدم وصول أشعة الشمس الى الأرض .. لخرجنا بنهار داكن قد لايرى الناس فيه بعضهم بعضا فى سهولة .. أو بليل أسود رهيب .. متشاه فى رهبته . هذا من ناحية السماء .. وأما من ناحية الأرض فقد تفجرت عيون الماء منها وكأن الماء يدفع بعضه بعضا فى قوة وجبروت واذا بهذه العيون ترسل أيضا خيوطا من الماء متصلة .. ومنطلقة انطلاق رهيبا وكأنها حراب مسننة أو خناجر تندفع من الأرض وليست ماء .. فلو راينا الخيوط المتدفقة من السماء تلتقى بالخيوط المتدافعة من الأرض وكأنه تصارع عارم بين المياه بعضها وبعض وفى اصطراعها هذا تقذف بالموت خنقا الى كل شخص كافر وتهدم بيته وتقوض أركان عشه وتحمل أدواته وأثاثه طافيا على الماء أو غارقا فيه .. فكأن غضب ألف سنة الا خمسين عاما الذى تولد فى صدر نوح وقلبه وعقله .. وقومه لا يستجيبون له .. قد تكور فاصبح كتلة واحدة ثقيلة .. والتقت تلك الكتلة مع أخرى من غضب الله المتكبر أشد منها وأنكى .. ثم انطلقت الكتلتان تدمران وتنزلان عقابا عجيبا ليس قادما من فوق رءوس الكافرين فحسب .. وانما من تحت أرجلهم أيضا .

اذن هناك جانبان جاءت منهما المياه .. السماء والأرض .. واذا بجانب ثالث يتساوى مع الاثنين السابقين ينتج عنهما .. ألا وهو الامواج .. فالأمواج لم تكن هادئة أبدا .. بل بلغت فى صخبها وغضبها حدا جعل اللجة منه تعلو فى الفضاء كأنها الجبل الشاهق .. فتلطم الكافرين الذين اعتقدوا سلامتهم فى النزوح الى الجبال .. وتضربهم فى عنف .. وبالطبع كانت سفينة نوح تجرى بين تلك الامواج .. واذا تصورنا سفينة فى يوم عاصف فى بحر عظيم غضوب فستكون كالريشة فى مهب الريح .. ولكن الله يحفظ السفينة وراكبيها المؤمنين. يقول القرآن : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ! » (هود ٤٢) .. هذه اذن هى الصور الحسية الدقيقة .. المتناهية فى دقتها والتى يعتبر سفر التكوين غفلا منها بالطبع !

أما النقطة الثانية وهى الخاصة بالصور المعنوية وهى صور أبطالها نوح وابنه !

ونبدأ القول بأن هذه الصور الدسمة التى جاءت فى مآدب القرآن الكريم .. لم يقدم منها شىء على الاطلاق فى جميع أطباق سفر التكوين .. فالقرآن لم يكتف بايراد الصور الحسية التى نعمت عيوننا برؤيتها وأشفقن منها .. فنراه يؤثر فى نفسياتنا .. ويرسم على وجوهنا انفعالات شتى نتيجة ضربه على الوتر الحساس ! ومسه شغاف القلوب .. فكأن القرآن يريد أن يصل بالقارىء الى تمثل حادثة الطوفان وما جرى فيها تمثلا حسيا كاملا .. ليس هذا فحسب .. وانما ينقل القارىء نقلا روحيا عميقا اليه .. وهذا فى عرضه حادثة تعتبر بسيطة فى مظهرها .. الا انها عميقة الغور .. تضرب فى أعماق القلب والنفس كما تضرب الشجرة الضخمة جذورها فى أعماق الأرض الخصيبة منتشرة فيها .. ومتشعبة الى جميع النواحى .. تلك هى حادثة نوح وابنه .. فقد حدث أن كان لنوح ابن اسمه كنعان ـ كما ورد فى الألوسى ـ وكان هذا كافرا .. وأثناء الطوفان وعندما بلغ الكرب أشده .. اذ بنوح من خلال سفينته يرى ابنه كنعان على البعد .. والماء المزمجر آخذ فى الاقتراب منه .. فى هذه الحادثة التى جاء بها القرآن نستبين تحليلا دقيقا لشخصيتين متناقضتين فى جميع أحوالهما .. فالأب نوح صاحب القلب الرحيم يخاف على ابنه .. فلقد تحركت مشاعر الأبوة الصادقة واتجهت بجزيئاتها نحو

كنعان .. عندما رآه نوح يتخذ لنفسه مكانا اعتقد فيه انه سيعزله عن الغرق .. وانه سيكون في مأمن من شر الامواج المتلاطمة .. ولكن نوحا يعلم يقينا بأن الماء لابد وان يسحب ابنه الى غياهب الموت سحبا لا شفقة فيه ولا تلطف .. ولا بد وان صوت الأمواج المتصارعة كان مرتفعا .. فأخذ نوح ينادي بابنه كنعان في صوت عال حتى يصل الصوت اليه .. وبالطبع فان حنان الأبوة كان على أشده لدى نوح .. ذلك الحنان الأبوي الصادق الذي لايمكن أن يشوبه زيف ولا رياء .. ولنا أن نتمثل أبا رحيما واقفا في مأمن يرى ابنه وفلذة كبده وقد بدا حبل المشنقة يلتف حول عنقه .. حول عنق قطعة لحم انفصلت عن جسم نوح ثم دبت على الأرض .. وبعد لحظات يسقط ابنه ميتا بعد أن كانت الروح فيه .. وكان ملء السمع والبصر .. فلابد وان يصيح بابنه صيحات فزعة مدوية .. فهو يعلم يقينا أن الذي يقف تحت المقصلة هو المحكوم عليه بالاعدام .. ولكن بنداء واحد منه .. أو نداءين .. قد يجعلان ابنه يتحرك من تحتها .. فينتظاه الموت .. فيناديه بنداء الأبوة أن يابني حتى يمكن لمشاعر البنوة أن تتحرك هي الأخرى كما تحركت مشاعر الأبوة من قبل.. فيلبي أباه فيقر عينه .. يقول القرآن :

« ونادى نوح ابنه وكان في معزل ! يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » (هود ٤٢) .

ولكن الابن المتغطرس المتكبر .. كيف يركب سفينة أبيه فيظهر أمام أقرانه ولداته بأنه خائف جبان ؟ فيعيرونه مستقبلا بأنه لما يبلغ مبلغ الرجال بعد .. وهو الفتى الشجاع صاحب الرأي بينهم .. فيتندرون عليه ويسخرون منه .. ثم ان هذه الأمواج المتدافعة لن تصل على الاطلاق الى قمة جبل .. فلماذا لا يأوي الى الجبل حتى يكون في مأمن من هذا السيل الجبار الذي يعتبر في نظره سحابة صيف .. ثم يعود الأمر كأن سيلا لم يكن .. بل كيف يركب في السفينة مع الذين آمنوا مع أبيه نوح ؟ وكيف يختلط بهم ويجالسهم وهم أضداده وهو خارج على الذي آمنوا به ؟؟ ان الركوب في السفينة عنده أعنف وأشد من الطوفان نفسه .. وأقسى من تلك الأمواج .. فلماذا لا يختار أهون الضررين .. بعدم استجابته لأبيه وعدم ركوبه في السفينة .. فكان أن رد النداء على أبيه بطريقة ملؤها الكبرياء والاعتزاز بالنفس اذ « قال : سآوي الى جبل يعصمني من الماء ! » (هود ٤٣) .. أي لن أذهب الي ما تدعوني اليه !! ولكن عيني نوح الدامعتين على ابنه وأذنيه المرهفتين جميعا .. متوجهة بأعماقها الى ابنه والى شفتيه .. وماذا عساها تنفرج عنه أمام هذا القضاء الذي حم .. فما ان سمع نوح اعراض ابنه عن الركوب حتى صاح بكنعان مرة أخرى صيحة الأبوة الرحيمة يذكره بأن هذا السيل ليس عاديا .. وانما هو عقاب فظيع من الله القادر وانه لا جبل .. ولا تل .. ولا برج .. ولا قمة مهما بلغت في ارتفاعها تستطيع أن تعصم أحدا من ارادة الله التي حقت .. فقد ناداه نوح . « قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ! » (هود ٤٣) أي فقد سد نوح المنافذ على ابنه .. وانتظر نوح بأذنيه المرهفتين اللتين لابد وأن ارهافهما قد زاد عن ذي قبل .. وحملق نوح من خلال الضباب بعينيه الزائغتين اللتين زادت قوة ابصارهما عن ذي قبل .. آملا استجابة ابنه له .. وعدم انقطاع الاتصال البصري والسمعي بينهما .. فهذا ابنه عما قريب قد يرى جثته تتقاذفها الأمواج وتعبث بها في دواماتها الشقية .. ومازال نوح يتابع ابنه بنظراته على البعد .. فقد يستدر عطف ابنه عليه فيتخذ طريقه نحو السفينة في اللحظة المناسبة .. والسفينة نفسها تتخذ طريقها نحوه أيضا .. ولكن ما أن مضت لحظة أو لحظتان على نوح في انتظار مايتفوه به ابنه .. ونوح متعلق بشرفتي كنعان .. حتى اندفعت موجة مجمومة اندفاعا رهيبا نحو المكان الذي يقف عليه كنعان فابتلعته ابتلاع الحوت الجائع من مدة طويلة .. فلقد انهت هذه اللجة العنيفة المحادثة بين الأب والابن .. وفصلت في القضية التي نظرت بينهما في جلسة واحدة .. فلم يكن ثمة داع لتأجيلها والمماطلة فيها .. وفي هذا يقول القرآن : « وحال بينهما الموج !! فكان من المغرقين ! » (هود ٤٣) .

ولن نستطيع نحن بأية حال من الأحوال أن نترك هذا الجزء الرائع المتناهي في روعة تعبيره وايجازه واعجازه دون أن نستشف بعض نقاط جميلة من الممكن أن يكون القرآن قد رمى اليها .

الاولى : لم يذهب نوح الى الاعتقاد بأن نبوته ستحجب العذاب عن ابنه وتشفع له عند الله .. الأمر الذي لم يتوجه نوح معه الى الله في حفظ ابنه من الغرق .. ولم يخاطب الله أيضا في أن يجعل ابنه يركب في السفينة .. وعلى هذا فنوح نفذ أمر ربه بحذافيره .. هذا الأمر الذي ألقاه الله اليه سلفا قائلا : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ! » (هود ٣٧)

الثانية : المحادثة بين نوح وابنه لم تنته بينهما .. فقد فرقتهما اللجة العاتية : « وحال بينهما الموج » (هود ٤٣) .. أي وقف الموج بمثابة الحاجز أو الفاصل فعاقهما عن اتمام محادثتهما .. فقد كان يأمل نوح بالطبع أن لا يغيب ابنه عن نظراته .. حتى يوالي تحذيره من غضب الله . ويسكب في أذنيه الحث على الركوب في السفينة الذي يعتبر هو الايمان بالله .وكان ينتظر نوح المزيد من ردود ابنه وعباراته فقد يرق قلبه ويلبي نداء الأبوة ويركب معه .. وكان شغوفا الى سماع صوت ابنه .. وعندما بلغ شغف نوح وشوقه الى ابنه مبلغا عنيفا اذ بالموج يتدخل بينهما فيغرقهما الى الأبد تاركا قلب نوح متوجعا أسيفا ! عدم اتمام المحادثة هذه نعتبره نحن امتحانا من الله لنوح هل يصبر لحكم الله ؟ أم يجار له بالشكوى ؟ وبالطبع فقد صبر نوح عليه السلام .. فلم يرد في القرآن أن نوحا خاطب الله في شأن ابنه أثناء الطوفان !!

وهنا يعن لنا سؤال مهم .. تساءلته أيضا بعض التفاسير من قبل وهو :

هل كان الطوفان عاما ؟؟ بمعنى أنه عم جميع أطراف الأرض ؟ أم اقتصر على المنطقة التي كان يعيش فيها نوح ؟؟ ...

ولقد ورد في روح المعاني قول الألوسي رحمه الله : « والذي يميل اليه القلب أن الطوفان لم يكن عاما ـ كما قال به البعض ـ وأنه عليه السلام لم يؤمر بحمل ما جرت العادة بتكونه من عفونة الأرض كالحشرات .. بل أمر بحمل ما يحتاج اليه اذا نجا ومن ومعه من الغرق لئلا يغتموا لفقره ويتكلفوا مشقة جلبه من الاصقاع النائية التي لم يصلها الغرق فكأنه قيل : قلنا احمل فيها من كل ما تحتاجونه اذا نجوتم زوجين اثنين » .

وفي الواقع من الأمر .. اننا نرجح أن الطوفان على عهد نوح كان عاما .. شاملا لكل أطراف الأرض ..حتى يمكن القول بأن كل قطعة منها قد غطته المياه فلم تترك قدرة ثقب ابرة .. وبالتالي تعتبر الأرض جميعا قد تحولت الى بحر عظيم لا ساحل له .. والذي يدعونا الى اصدار مثل هذا الرأي ثلاثة اعتبارات هامة

للقريه اقترابا كبيرا من بدء الخليقة .. ولم تكن الخلائق كثيرة فى عددها بالطبع بل كانت قليلة .. وكانت أعمارهم طويلة جدا الى درجة مستحيلة فى عصرنا الحاضر .. فالفرد كان يعيش سبعمائة عام أو ثمانمائة .. ونوح بالذات لبث فى قومه تسعمائة وخمسين عاما يدعوهم الى الله الواحد .. وبالطبع كانت هناك سنون طويلة قد مرت على نوح قبل أن تأتيه رسالة ربه .. وما ذلك الا لتعمر هذه القلة من الناس الارض حتى يتكاثروا ويتوالدوا ولم تكن هناك هجرة من أولئك القلة اذ أن عقولهم وطرق معيشتهم بدائية كانت قاصرة على الضرب فى الأرض بغية المزيد من أساليب العيش .. وعلى هذا فقوم نوح فقط هم الذين يعتبرون قبل الطوفان ـ سكان الارض فقط من الانس الاحياء ولم تكن هناك حياة بشرية أخرى فى أية بقعة أخرى من بقاع الأرض .. ويمكن تطبيق هذا على الحيوانات .. فما كان منها مستانس بقى الى جوار قوم نوح .. ومن كان منها متوحش فبالطبع هرب الى الجهات المجاورة حيث الجبال .. وحيث لا سكان يطاردونه .. وان كانت تلك الجهات قريبة ـ الى درجة ما ـ حيث سكنى نوح وقومه .. أى يمكن اعتبار أن الحيوانات لم تتوغل فى البعد عن قوم نوح .. بل ظلت محيطة بهم .. وقد تكون هذه السكنى فى غرب آسيا وشمال شرق افريقيا فى المربع الذى تحده الان شمالا جبال طوروس وشمال العراق وجنوبا الحدود الشمالية للمملكة السعودية وشرقا العراق .. وغربا شبه جزيرة سيناء وبلاد الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نخرج من هذا الاعتبار الأول أن نوحا وقومه كانوا قليلين فى عددهم وأنهم كانوا حاملى لواء البشر الى تعمير الأرض بالنسل و .. على تلك البذور يتوقف بالطبع تحديد القلة .. وقد عرفنا أن هذه البذور كانت فاسدة أغلبيتها العظمى فسادا كاملا لا يمكن أن ينشأ معه أمل فى صلاحيتها .. وكان كفر القوم شديدا وبلا هوادة .. ولو تركوا هكذا فى كفرهم لعلموا أبناءهم وأحفادهم الكفر .. فتنشأ الدنيا على الكفر والعناد .. الامر الذى اعتقده نوح .. فدعا الله أن يطهر الارض من هذه الشرذمة الكافرة لينشأ الخلق بعد ذلك مؤمنين مسلمين لله .. وحتى لو كفر البعض فانهم سيكونون نسبة ضئيلة من البشر .. يرجى صلاح الدنيا وترجى عبادة الله الواحد على أيدى المؤمنين منهم .. الامر الذى من أجله خاطب نوح ربه قائلا فى صرخته الخالدة : « رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ! انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ! » (نوح ٢٦ ـ ٢٧) فكان أن طهر الله تلك البقعة من الارض منهم بالطوفان .. بل ويمكن القول بأن الارض جميعا قد أخذت « دشا » من الماء الوفير كافيا لتطهيرها من تلك الفترة العاتية التى عاش قوم نوح على بقعة واحدة منها فقط .. ولا يفوتنا أن نذكر أن أول جريمة حدثت على الارض كانت بين الاخوين هابيل وقابيل حيث قتل ثانيهما الاول .. والدماء الزكية التى جرت على الارض بغير الحق لاول مرة .. فلماذا لا تكون الارض أثناء الطوفان بمثابة الاستحمام الكامل من هذه الجريمة .. ومن جناية الاشراك بالله أيضا على يدى قوم نوح !! فكان الطوفان الشامل قد ضرب عصفورين بحجر واحد !! .

الاعتبار الثانى : قول الله : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ! » (هود ٤٠) .. أى ذكر وأنثى من نفس الجنس .. وما ذلك الا للتوالد بعد الطوفان .. أى أنه لن يكون هناك أى جنس من المخلوقات البشرية والحيوانية على وجه الارض الا ويغرق بالطوفان .. الأمر الذى قد يدعو البعض الى التساؤل عن الذنب الذى اقترفته تلك الحيوانات والطيور مما دعا الله أن يهلكهم بذنوبهم .. فنقول بأن تلك المخلوقات غير الانسية كان بعضها ـ من المستانس ـ يطيع الكافرين فى أعمالهم .. والبعض الاخر ـ من المتوحش ـ عاش فترة طويلة فى زمن لم يعترف فيها معظم الناس لله بالوحدانية ولا بالربوبية له مع ارسال الله رسولا اليهم .. فكان أن أهلكهم الله لمجرد حياتهم فى تلك الفترة التى غضب الله فيها غضبا شديدا .. وأما المخلوقات التى ركبت مع نوح فانها قد أطاعت نوحا وركبت معه فى الفلك .. ونحسب أنها كانت هادئة فى ركوبها السفينة الى درجة كبيرة !

الاعتبار الثالث : أن الماء أخذ يعلو على سطح الأرض حتى غطى الجبال .. يقول القرآن بعد الطوفان : « وغيض الماء .. وقضى الأمر ! واستوت على الجودى » (هود ٤٤) .. وذلك بالطبع بعد أن هبط الماء عن مستواه الذى بلغ عنفوانه .. اذن فالسفينة بحمولتها الضخمة كانت تسير على نسبة مرتفعة جدا عن قمة الجبل .. ومن المعلوم للقراء ولنا بالطبع ـ أن الماء لايمكن أن يرتفع الى مثل هذا الارتفاع الكبير الا اذا كان محصورا حصرا دقيقا من جميع الجهات .. ومن المعروف عن هذه المنطقة أنه لايوجد بها جبال تكون سلسلة دائرية متصلة بدون ثغرات بينها تحيط بنوح وقومه فيرتفع الماء بينها فقط دون الاماكن المجاورة .. وهذا يحدونا الى القول بأن الماء قد عم الارض جميعا .. لانه طبقا لنظرية « الاوانى المستطرقة » لا يمكن أن نحصل على مثل هذا العلو الشاهق للمياه فى مكان معين والى جانبه من مكان آخر خال منها .. لأن المياه بالطبع ستجرى الى هذا المكان الآخر فلا تحصل على الارتفاع المنشود .. وعلى هذا فان الأرض جميعا كانت وحدة واحدة فتحت أبواب السماء بالمطر عليها فى جميع الجهات شمالها وجنوبها وشرقها وغربها .. وفجرت منها العيون فى كل بقعة من الأرض جميعا أيضا .. الأمر الذى أحدث بالطبع التساوى فى الوجه الأعلى للمياه وحتى وصل الى مافوق قمة الجبل بمقدار كبير .. لأنه لا يمكننا الحصول على مثل هذا الارتفاع الا بارتفاع الماء نفسه بنسب ثابتة فى جميع أطراف الأرض .. وفى كل جزء وبقعة فيها .. الأمر الذى نستطيع معه أن نؤكد أن الطوفان كان عاما ..

وبعد كل هذا الصخب العنيف للطوفان نستشعر الهدوء بعد العاصفة .

فقد قضى أمر الله ! وأهلك الكافرين .. وكان حقا على جنود الله أن يتخذوا طريقهم نحو ثكناتهم .. بعد أن لطموا الظالمين لطمات بالغة فى قسوتها .. اذن فقد حل الهدوء .. ولننظر ما جاء عنه فى سفر التكوين : « وأجاز الله ريحا على الارض فهدأت المياه .. وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء .. فامتنع المطر من السماء ورجعت المياه عن الارض رجوعا متواليا .. وبعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه واستقر الفلك على جبال أراراط » (ص ٨ : ١ ـ ٤) .. ثم ذكر سفر التكوين كيف أن نوحا أرسل الغراب من الفلك .. ثم الحمامة .. فرجعت اليه بغصن زيتون فعرف أن الأرض بدأت تظهر : « فكشف نوح الغطاء عن الفلك .. ونظر فاذا وجه الأرض قد نشف » (ص ٨ : ١٣)

وبالطبع ان التعبير الركيك يذهب بالنص ذهابا .. بل يضع المعنى فى اطار مليء بالغموض والتشويش .. فاذا اضفنا الى هذا أن سفر التكوين لم يأت بالمعنى نفسه الا قليلا . فسنخرج بصور فارغة من أى فن .. لايمكنها خلق احساس فنى لدى من يقرأها .. بل تكون ثقيلة عند ناظرها .. وسامعها .. ونقرأ فى سفر التكوين : « وكلم الله نوحا قائلا اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك .. وكل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الأرض أخرجها معك ولتتوالد على الأرض .. فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك » (ص ٨ : ١٥ ـ ١٩) .. أولا : لاحظ أيها القارىء الفاضل أن كلمة « كل » هنا تكررت سبع مرات .. وكلمك « معك » أربعا .. وكلمة « خرج » أربعا !! ونترك الحكم للقارىء ثم ألا كان يكفى أن يقول الله لنوح : اخرج أنت ومن معك من الفلك ؟ » ولم يكن ثمة داع الى تعديد جميع الأصناف الموجودة مع نوح .. فهل يتكلم الله مثل هذا الكلام المليء بالحشو !؟ وبالنقد !؟ بل ومن العجيب « جدا » أننا نقرأ بعد ذلك تكرارا أن نوحا خرج هو وبنوه .. و .. و .. الخ ! فهل بالله نعتبر أنه موحى به من الله تبارك وتعالى !؟ فيا أيتها القساوسة والرهبان .. افتونا فى هذا الأمر ان كنتم للفتوى تتصدرون ؟؟!

ولننظر اذن ماجاء عن هذا الهدوء فى القرآن الكريم!

فلقد أورد القرآن كلمات قلائل فى عددها .. كثيرة رائعة فى معانيها وأعماقها .. حتى ليحس القارىء بأن طوفانا ثانيا من الصور والألوان الدقيقة قد انفتح .. ولكن لا ليغرق .. أو يدمر .. ولكن ليعلم كيف تصاغ الكلمات .. وكيف يؤتى بالعبارات المناسبة للموضوع تناسبا كاملا فى أعلى مراتبه .. فيه فن وحكمة ! فيه قوة وجمال ! .. يعلم فن الكتابة لا للذين نزل على أيامهم القرآن المجيد فحسب .. ولكن لمن يجىء بعدهم من القرون الطويلة وحتى قيام الساعة ! .. والقرآن بالطبع أبد هو المدرس الأوحد ! وأبدا هو الصادق الأوحد ! وأبدا هو المعلم الأوحد لكل جيل وزمان ! .

فبالطبع أول الأمر أصدر الله أمره الى السماء فانفتحت أبوابها بالمطر .. وآخر الى الأرض فتفجرت منها العيون .. وكل هذا لاغراق الظالمين وقطع دابرهم نهائيا ! وها قد أغرقوا .. ودابرهم قد قطع ! ومازالت السماء والأرض ترسلان عقابهما وكان لابد من أن الجهة التى أصدرت مثل هذا الأمر العنيف هى التى توقفه وتمنعه ! وليست هناك جهة تستطيع أن تتدخل .. فكل شامخ تهدم ! وكل متكبر غرس رأسه فى الطين .! وكل ظالم خرجت أحشاؤه .. وكل متطاول على الله العلى اخذته اللجة الهائلة ! وهاهو نوح فى سفينته كنبى عظيم .. وقبطان خبير ينظر فيرى عنفوان الماء وجبروته .. وهو عاجز عن أن يصدر أمرا الى الماء أن اديت واجبك فكفى .. فالأمر ليس بيدى نوح فى تلك الساعات الحالكة .. فلقد خرج بالطبع الأمر من يده وأصبح قبطان السفينة نفسه ينتظر قضاء الله فيه !

وأخيرا .. وبعد فترة كافية لاغراق الكافرين أصدر الله أمره الى الأرض أن تبتلع ما تدفق من عيونها وما نزل عليها .. والى السماء أن تمسك ماءها فلاترسله .. وبالطبع بدأتا على الفور فى الانصياع لأمر الله .. وبدأ الماء يتناقص من على الأرض شيئا فشيئا .. اذن فلقد انقضى أمر الله فى اهلاك الكافرين .. واستوت السفينة على جبل يقال له الجودى بالموصل أو بالشام ـ كما ورد فى الألوسى ـ واذ بالملائكة والناجين فى سفينة نوح يقولون فى شماتة : أن هلاكا وبعدا عن رحمة الله للقوم الظالمين .. يقول القرآن : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ! ويا سماء أقلعى ! وغيض الماء ! وقضى الأمر ! واستوت على الجودى! وقيل بعدا للقوم الظالمين !» (هود ٤٤) ..

والى هنا .. هل خاطب نوح ربه فى أمر الظالمين ؟ بالطبع لم يحدث .. اذن فلم يتنكب نوح أمر ربه !!

ونأتى الى القسم الخامس الخاص باسترحام نوح ربه

اذن .. فلقد أخذت الأرض فى ابتلاع ما على وجهها من الماء .. وأقلعت السماء عن ارسال أمطارها الغزار .. وبدأت سفينة نوح ترسو الى جانب أحد الجبال.. وبالطبع .. فقد مرت فترة من الزمن بين ابتداء السماء والأرض فى انفتاحهما بالمطر .. وبين أمر الله لهما بالكف عنه .. فماذا كان شعور نوح عليه السلام واحساساته ؟ لابد وأنه كان مبلبل الفكر تجاه ابنه كنعان منذ أن حالت بينهما تلك اللجة العنيفة فلم يستمع الى جواب ابنه الاخير .. خصوصا وانه قد رأى تلك اللجة وهى تلطم ابنه فى قسوة .. فلم تمهله حتى يرد على أبيه .. فكأنه عاش صورا أخيرة من حياة ابنه .. فأخذت هذه الصور تتراءى له فى مجلسه من السفينة .. وفى صحوه .. ومنامه .. وبالتالى فقد قضت مضجعه الا من تثبيت الله له .. وانزاله السكينة على قلبه .. وبالطبع ان حنان الأبوة كان يتخذ له جزءا من قلب نوح وعقله .. فنرى نوحا تتنازعه عاملان قويان :

الأول : أمر الله له بعدم مخاطبته فى شأن الظالمين .

الثانى : صورة ابنه وهو يقالب الموت فى الرمق الأخير ..

واذ بالعامل الاول قد تغلب على نوح فرضخ له ولم يعقب على حكم الله .. ولكن بعد ذلك نقرأ فى القرآن: « ونادى نوح ربه فقال : رب ! ان ابنى من أهلى !! وان وعدك الحق !! وأنت أحكم الحاكمين ! » (هود ٤٥) . اذن فقد خاطب نوح ربه فى أمر ابنه الكافر .. فكيف يحدث هذا ؟؟ مع أن الله أمره بعدم المخاطبة فى شأن الكافرين ! الأمر الذى قد يحدو البعض أن يقولوا بأن نوحا فى هذا الجزء قد تنكب أمر ربه ؟؟

وفى الواقع من الأمر .. ان نوحا لم يتنكب أمر ربه على الاطلاق .. بل سار نوح فى أبعاد تنفيذ الأمر السامى الى نهاية الشوط .. فقول الله لنوح : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ! » (هود ٣٧) .. لابد وأن نوحا أخذ يقلب هذا الأمر على وجوهه .. يحدوه أن يجد ثغرة واحدة يستطيع منها النفاذ الى مخاطبة الله فى أمر ابنه .. ولقد وجد نوح ـ فى اعتقاده ـ ثغرتين اثنتين : الاولى : أن كنعان بن نوح يعتبر من أهل نوح الذين قال الله فيهم :

« احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، الا من سبق عليه القول ومن آمن ! » (هود ٤٠) .

الثانية : اعتقد نوح أن أمر عدم المخاطبة فى شأن الظالمين يستمر تنفيذه بالطبع حتى يغرق الظالمون جميعا .. فاذا هلكوا ولم يكن هناك فرد حى منهم .. يستطيع نوح أن يخاطب اليه بعد ذلك على اعتبار أن أمر الله موقوت بغرق الظالمين ، وبعده يصبح فى حل من أمر الله فيستطيع أن يخاطب الله فقد قال الله له : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ! » (هود

٣٧) وبعد الاغراق يمكن لنوح أن يخاطب الله كما يشاء .. وفى أى موضوع كان ..

اذن فهناك حجتان فى يدى نوح يستطيع بهما أن يتقدم الى القاضى الأكبر ليسمح له بسماع أقواله ولكن كيف ينتقى نوح المعنى السامى الذى يخاطب الله به ؟ بالاضافة الى الادب العظيم الذى كان عليه نوح العظيم ؟ فما أن حل الهدوء بعد العاصفة .. وانتهت موجة الطوفان .. حتى تقدم نوح بطلبه الى اللهالكبير مخاطبا اياه فى شأن ابنه .. ولابد وأن صوت نوحكان خاشعا .. وهادئا .. ورائعا .. ولابد وأنه قد تمتم ببعض آيات وأدعية علمهن الله له .. وبدا كأنه يقدم رجلا ويؤخر أخرى : « ونادى نوح ربه فقال : رب !.. ان ابنى من أهلى ! وان وعدك الحق .. وأنت أحكم الحاكمين ! » (هود ٤٥) .. كلمات منتقاة .. عميقة فالذى يخاطب العظماء لابد وأن يتحفظ فى كلماته هو الاخر .. وينتقى ما سما منها .. وما علا من تراكيبها فى ايجاز بليغ .. فان نوحا يخاطب علام الغيوب .. أى رب ان كنعان من أهلى لأنه ابنى وفلذة كبدى .. وقد وعدت وعدك الحق يا رب أن تنجى أهلى من الغرق وقضاؤك أعلى .. ولكنى لست الان فى موقف المعقب على حكمك .. فأنت أحكم الحاكمين ! وبالطبع فقد بلغ نوح تأدبا كبيرا فى مخاطبته لله تعالى .. وآملا منه فى نفس الوقت أن يرفع العذاب عن ابنه .. وان كان ابنه قد غرق فعلا ولا سبيل الى اعادته للحياة .. فكأن استرحام نوح ربه على اعتبار أن يتقبل الله شفاعة نوح فى ابنه فيرفع الله العذاب عنه .. لأن نوحا يعلم بأن الكافرين سيردون الى أشد العذاب يوم القيامة ! وجاء جواب الله على قول نوح فى ثورة .. وعتاب شديد الى نوح .. وخبر عنيف بأن ابنك يانوح من الكافرين ! فلا بعد من أهلك بالطبع .. فان أهلك هم المؤمنون وكنعان ليس منهم .. لأنه كافر تنكب الطريق المستقيم .. طريق الايمان بى .. والاعتراف بالوحدانية !ويانوح لابد وأن تكف عن أسئلتك فى أمور لاتعلمها .. ولاتتدخل فى شئونى العليا التى تعلو عن ذهنك وأفكارك .. وكان المفروض يانوح أن تعلم أنت هذا فلا تقحم نفسك فىأمور لا دخل لك أنت بها !! الى أنك يانوح ترمى من كلامك أن أرفع العذاب عن ابنك أو أن أعيده الى الحياة مرة أخرى .. وأنت تعلم يانوح أن قضائى لابد لى من أن أنفذه بحذافيره .. فالعذاب واقع بابنك الكافر لا محالة .. فقد حق القول منى بأنهم مغرقون .. وأنا أعظك يانوح وأبين لك الأبعاد التى يجب أن لا تتعداها .. حتى لاتكون من الجاهلين .. فتعد منهم .. يقول القرآن : « قال يانوح انه ليس من أهلك ! انه عمل غير صالح ! فلا تسألن ما ليس لك به علم ! انى أعظك أن تكون من الجاهلين ! » (هود ٤٦) ..

ولابد وأن نوحا عند سماعه هذا القول قد اضطرب.. واهتز .. وشاب وجهه اصفرار عنيف ! فكلمات الله له تحمل ثورة عارمة على مخاطبته اياه .. فارتعد نوح ارتعادا هائلا واعتذر لله على الفور آملا أن يغفر الله له هذا التطفل ويتوب عليه فقد قال : « رب .. انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ! والا تغفر لىوترحمنى أكن من الخاسرين ! » (هود ٤٧) .. وقد جاء عن الفضيل بن عياض أنه قال : « بلغنى أن نوحا عليه السلام بكى عشر قول الله تعالى ماقال اربعين يوما !! »

وجاء رد الله العظيم .. فى أدب بالطبع يصل الى اعلى درجات الكمال صافحا عن نوح نبيه العظيم فقد قال الله له : « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » (هود ٤٨) .

وبالطبع .. هدأت نفس نوح .. ورجع الى صوابه . كل هذا الأمر الرائع .. لم يأت له ذكر على الاطلاق فى جميع اصحاحات سفر التكوين !

وبعد هذا نرى الحياة على الأرض من جديد ..

ولنبدأ ماجاء عنه فى سفر التكوين .. فبعد أن خرج نوح ومن معه من الفلك نقرأ فى سفر التكوين تفصيلا عن حياة نوح بعد الطوفان .. هذا التفصيلكان يعتبر جميلا ـ الى حد ما ـ لولا مايشوب الأسلوب من تكرار ممل وأفكار ساذجة .. ففى الاصحاح التاسع: « وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملئوا الأرض .. كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت اليكم الجميع » (ص ٩ . ١ ـ ٤) ونعتقد نحن أن كل دابة حية فى ذلك الوقت لم تكن جميعا طعاما لنوح وأهله .. بل كانوا يأكلون دوابا معينة .. ثم ان نوحا ومن كان فى الفلك بالطبع سيأكلون ويشربون فلم يكن هناك داع الى ذكره .

وفى موضع آخر من الاصحاح التاسع : « فلا تكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد » (ص : ٩ ـ ١٥) وهذا صحيح بالطبع فلم يتكرر الطوفان مرة أخرى ولن يتكرر ..

أما القرآن فقلما يذكر مآدب الأكل والشرب التى نجد سفر التكوين منصوبة تلك المآدب فيه عند الصباح وفى الغداء .. وفى العشاء .. وان كان سفر التكوين لم يقدم على الاطلاق أى مائدة دسمة مليئة بأنواع مختلفة من الآداب والأخلاق والتهذيب .. وانما كانت موائده وأطباقه مليئة بلاشىء !

فلقد كرم الله نوحا بمغفرة منه وسلام وبركات .. ليس عليه فقط وانما على ذريات ستكون أمما كثيرة من بعد .. أصولها كانت معه فى السفينة .. بل أطلع الله وقتئذ نوحا شيئا من الغيب بأن بعض تلك الذريات والأمم سيمتعهم الله فى الدنيا ولكنهم يفسدون ..ويكون مصيرهم الى النار يقول القرآن : « يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » (هود ٤٨) .

ونستطيع أن نذكر أن بركات الله على نوح وعلى الأمم التى ستتفرع عنهم .. لن يصيبهم مثل هذا الطوفان حتى قيام الساعة .. وأن المفسدين سيلاقون جزاءهم عندما ينصب الميزان القسط ليوم القيامة .

اذن .. فلقد أتينا الى خاتمة قصة نوح عليه السلام كما وردت فى كل من القرآن الكريم وكتب العهد القديم .. ولابد من ذكر ما عن لنا من الملاحظات العامة التى مررنا بها فى كل من الكتابين المعنيين :

فمن ناحية سفر التكوين نستبين سبع نقاط هامة :

الأولى : لم تذكر قصة نوح فى سفر التكوين أى شىء عن عقيدة التوحيد اطلاقا ! فلم يرد فى القصة أن هناك الها واحدا كان يؤمن به نوح !. وكان يدعو اليه !

الثانية : لم يذكر سفر التكوين أن نوحا نبى من قبل الله !

الثالثة : لم تسمع صوت نوح فى سفر التكوين على الاطلاق .. فلم ينكلم نوح كلمة واحدة فقط فى أىموقف من المواقف الخالدة التى مرت بها قصته العظيمة !

الرابعة : لم يبين سفر التكوين أن السفينة صنعت خصيصا لانقاذ المؤمنين بالله .. ولم يذكر أن راكبى السفينة كانوا من المؤمنين .. بل لم يذكر كلمة « المؤمنين » .. أو كلمة « الكافرين » ولم يبين الفرق بينهما على الاطلاق ..

الخامسة : لم تذكر القصة سوى نقطتين فقط من حياة نوح هما صناعة الفلك والطوفان .. أما الحياة الرائعة الحافلة بالجدل العنيف بين نوح وبين قومه حول عبادة الله الواحد .. والبعد عن الأصنام .. وحتى هاتين النقطتين رأينا فيهما من التشويش ما رأينا !

السادسة : التكرار فى الجمل والكلمات تكرارا لايمكن الاعتقاد معه بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أوحى بمثل هذا !

السابعة : لايخرج القارىء بأية فائدة دينية ! أو دنيوية أو أدبية أو عملية على الاطلاق !

أما فى القرآن فنستبين جميع أطراف حياة نوح .. بطريقة عميقة .. ونستطيع أن نجمل ملاحظاتنا فى النقاط الست الاتية :

الأولى : شرحت القصة فى القرآن عقيدة التوحيد شرحا وافيا كاملا .. ونستطيع أن نل((ابنى رة قع كل شرحا وافيا كاملا .. يقول الله : « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ! أن لا تعبدوا الا الله » (هود ٢٥ ـ ٢٦) .

الثانية : أظهرت القصة منذ البدء أن نوحا نبى من قبل الله .. ولم يترك القرآن شخصية نوح طافية على السطح كما كان الحال فى سفر التكوين ..

الثالثة : فى القرآن سمعنا صوت نوح كثيرا .. وعرفنا شخصيته وتفهمنا تحليلا دقيقا لها .. وقرأنا كيف كان يجادل قومه بالحق فيقول الكافرون له : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا » (هود ٣٢) .

الرابعة : صنع السفينة بالطبع كان لانقاذ المؤمنين بالله من الغرق .. يقول القرآن : « فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » (المؤمنون ٢٨) .

الخامسة : جاءت القصة فحللت جميع المراحل التى مرت بها حياة نوح منذ ارسال الله له .. وجعله نبيا كما رأينا من قبل .

السادسة : هناك فوائد عديدة دينية يخرج بها القارىء فى القرآن فقد عرف عقيدة التوحيد معرفة كاملة لا نقص فيها .. وأيضا فوائد دنيوية فقد أجاب نوح عندما أراد المشركون ابعاد الفقراء المؤمنين عن مجلسه عليه السلام فقال : « وما أنا بطارد الذين آمنوا » (هود ٢٩) .. وفوائد أدبية فقد أوسعت المجال أمام القارىء ليعمل ذهنه فيما يدور حوله ويدقق فيه .. ولقد عرفنا مواطن الايجاز المعجز فى القصة ومن ناحية الفائدة العلمية فلقد عرفنا بطريقة « الأوانى المستطرقة » أن الطوفان كان عاما فى كل أرجاء الارض ولم يقتصر على بقعة بعينها .

وبعد ..

فهل يحق لمترجم سفر التكوين أن يأتى بتلك المعلومات فقط عن نوح ؟؟ ويترك الأجزاء البالغة فى أهميتها .. وهل يصح لمترجم سفر التكوين أن يعيث فسادا بهذا الشكل فى قصة نبى عظيم مثل نوح ؟؟ فيأخذ ـ بجهله ـ يحذف ويضيف مايتراءى له ؟ .. حتى بلغت القصة فى سفر التكوين هذا المبلغ العنيف من التشويش؟ ولولا القرآن العظيم لما عرفنا عن نوح وقصته شيئا .. ولما اهتدينا الى النقاط الكبار التى جاء بها بطريقة فنية أدبية معجزة !! حقا ! ان القرآن كتاب : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. تنزيل من حكيم حميد » ..

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی